المقدمة

يقوم منهج الكتاب على النظر إلى الفكر المعاصر الذى يمس العقيدة الإسلامية طبقاً للاعتبارات التالية:

أولاً: أنـه لا يجـوز الاشتغـال فى هذا الموضوع بالمذاهب الدينية البحتة، أو الفرق المارقة، لأن خطة البحث تكفلت بذلك فى مواقع أخرى (الفرق وتاريخ الأديان).

كما أنه لا يجوز الاشتغال بالاتجاهات الفكرية المتوارية أو المنسحبة لأن هذا فضلاً عن كونه ترفاً: فإنه أسلوب خاطئ يؤدى إلى إحياء هذه الاتجاهات وإعطائها فرصة للذيوع لم تعد تحلم بها.

ثانياً: أنه من الأفضل – مواجهة الاتجاهات الفكرية المعاصرة وفقاً للقضايا الرئيسية التى يحتدم فيها الخلاف مع العقيدة الإسلامية، لا وفقاً لتصنيفات هذه الاتجاهات فى حد ذاتها، من حيث مالها من مدارس، وزعماء، وهموم، فهذا – أى هذا الذى نراه أفضل – أدعى إلى جر الخصم إلى قتال يدور وفقاً لـ "استراتيجيتنا"، وهو بعد ذلك أكثر اتفاقاً مع الهدف المطلوب من هذه الدراسة، إذ أن الهدف يتصل بالدفاع عن العقيدة الإسلامية بأكثر مما يتصل بالتفرغ لدراسة هذه الاتجاهات

ثالثاً: أن الفكر المعاصر الذى نتعرض له من حيث ماله من مساس بالعقيدة الإسلامية تتفق اتجاهاته – غالباً – فى نظرتها إلى المادة باعتبار أنها اصل الوجود.

رابعا: أن هذه الاتجاهات الفكرية المعاصرة إذ تلتقى جميعا تحت راية المادية فهى

تتفق جميعا فى ارتداء "مسوح العلم" والمقصود هنا بالطبع العلم التجريبى فى رؤيته المحدودة للوجود ومناهج البحث.

خامساً: يحاول الكتاب أن يسهم فى جهود علم الكلام المعاصر، مقتديا فى ذلك بالسلف الصالح من علماء الكلام الذين كانوا يدافعون بكل ما لديهم من قوة وأدوات عن عقائد الإسلام، وكانوا يقتحمون بنهج علمى مسائل العلم المادى، ويستفيدون بمسلمات الخصم.

وبالله التوفيق،،،

أ.د. يحيى هاشم حسن فرغل

openkandl.com

المدخل

(١)

المقصود بالفكر المعاصر فى هذه الدراسة بخاصة: التيارات الفكرية التى تمس العقيدة الإسلامية بشىء من الخطر يهدد بالخروج من نطاقها إلى نطاق الإلحاد. ولابد لنا من هذا التخصيص: لأنه من غير الممكن أن نتناول التيارات الفكرية بالدراسة على وجه الإطلاق، لأن هذا يعنى دراسة تيارات الفكر الإنسانى فى جميع العصور وفى جميع الاتجاهات، وهذا أمر مستبعد بداهة، من هنا فإننا نجد أن التيارات الفكرية التى يمكن أن تهدد العقيدة الإسلامية تأتيها من ثلاث جهات:

الجهة الأولى:

ادعاء الاعتماد على العقل المستقل، وذلك عندما يسفر هذا الادعاء عن تقرير أمور تتعارض مع العقيدة الإسلامية: كالقول بقدم العالم وأن الله تعالى لا يعلم الجزئيات، وأن البعث لا يكون إلا بالروح... الخ..

الجهة الثانية:

أدعاء الاعتماد على الاتصال الروحى وذلك عندما يسفر هذا الادعاء عن تقرير أمور تتعارض مع العقيدة الإسلامية كذلك: كادعاء الألوهية وادعاء النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم، وادعاء العلم بالغيب الذى لم يأت صريحا فى الكتاب أو السنة.

الجهة الثالثة:

ادعاء الاعتماد على "العلم" والمقصود بالعلم هنا العلم التجريبى وفقا

obeikandl.com

للمصطلح الحديث، وذلك عندما يسفر هذا الادعاء عن تقرير أمور تتعارض مع العقيدة الإسلامية أيضا: كالقول بإنكار الغيبيات والقول بكفاية العلم والاستغناء به عن الوحي فى المعرفة والقيم.

ومن الواضح أن التيارات الفكرية التى تأتى من الجهة الأولى لا تتصف بالمعاصرة وإن كان لها وجود فى الفكر المعاصر، لأن منبعها قديم، فقد ظهرت هذه التيارات منذ أن اصطدم الدين بالفلسفة، وهى تيارات موجودة فى الفلسفة اليونانية وما يسمى بالفلسفة الإسلامية عند الفارابى وابن سينا وغيرها. والمجال لدراستها مفتوح فى دراسة الفلسفة بأنواعها المختلفة، وإذن فمثل هذه التيارات مستبعدة منهجيا من هذه الدراسة.

ومن الواضح أيضا أن التيارات الفكرية التى تأتى من الجهة الثانية – أدعاء الاعتماد على الاتصال الروحى – لا تتصف بالمعاصرة وإن كان لها وجود فى التيارات المعاصرة، لأن منبعها قديم، فقد ظهر هذا الادعاء الكاذب فى نفس الوقت الذى ظهر فيه الادعاء الصادق، وهى تيارات موجودة فى تاريخ الإسلام ابتداء من مسيلمه الكذاب إلى الحاكم بأمر الله، إلى بعض المذاهب الصوفية الزائغة، إلى البابية والبهائية فى العصر الحديث. والمجال لدراسة هذه التيارات مفتوح فى دراسة الملل والنحل والفرق والأديان، وإذن فمثل هذه التيارات ينبغى أن تستبعد منهجيا من هذه الدراسة.

يبقى لدينا بعد ما تقدم: الجهة الثالثة وهى التيارات التى تأتى من أدعاء الاعتماد على "العلم التجريبى" فى الأمثلة التى نذكرها فيما يلى، ذلك لأنه يمكننا أن نقول إن هذه التيارات نبعت فى عصرنا الحاضر، عصر "العلم"، و"فلسفة العلم"، إذ من الواضح أن التيارات الفكرية المعادية للدين فى الحضارة اليونانية، أو الإسلامية، أو فى أوربا فى العصور الوسطى، لم يكن لها نصيب من ادعاء الاستناد إلى "العلم التجريبى"، لسبب بسيط هو أن العلم التجريبى فى تلك العصور لم يكن له صوت يذكر، أما فى عصرنا الحاضر عصر "العلمانية" أو بعبارة أخرى عصر استبعاد الدين

من مجال العلم والسياسة والأخلاق، فقد تولى رعاية النشاط العلمى فيه وتأصيله واستنباط نتائجه مفكرون علمانيون أو مفكرون ملحدون، وهذا هو الأمر الذى سمح بظهور هذا النوع من التيارات الفكرية المعادية للدين والتى تدعى الاستناد إلى العلم التجريبى أو فلسفة العلم، ومن هنا نقول إن هذه التيارات هى التى تستحق وصف المعاصرة، وأن هذه الدراسة ينبغى أن تتجه إلى هذه التيارات.

وخلاصة القول: أن التيارات الفكرية المعاصرة، التى نخصص لها هذه الدراسة، ليست هى التيارات التى نجدها فى أدعاء الاستناد إلى العقل أو فى ادعاء الاستناد إلى الوحى، وإنما هى تلك التى نجدها فى ادعاء الاستناد إلى "العلم التجريبى" وهى بعد ذلك التيارات الفكرية التى تؤدى إلى الالحاد.

(٢)

وكما أن مذاهب الإلحاد المعاصر ترتدى مسوح العلم.. فهى من ناحية أخرى تتفق غالباً فى نظرتها إلى المادة باعتبار أنها أصل الوجود.

وهروب بعض هذه المذاهب من التسمى باسم "المادية" منشؤه كما يقول الأستاذ جون سومرفيل[1]:

(إن مجرد تسمية إحدى الفلسفات لنفسها "بالمادية" يعتبر عادة فى نطاق حدودنا الثقافية أمراً يدعونا إلى النفور منها، وقفل الأبواب دونها، وإن كلمة "مادية" تستخدم فى العادة فى سياق الاتهام لا من أجل التصنيف فقط)، ثم يقول: (لهذا فهم يميلون إلى إطلاق اسم "التجريبية" و"الطبيعية" و"الإنسانية" و"الواقعية"، وما شابه ذلك على فلسفات كان من الأدق أن تسمى "مادية".)

والماركسية لم تختص باسم الفلسفة المادية المعاصرة إلا لأن (المفكرين السوفيت يحذون حذو ماركس وإنجلز فى مقت أى تحايل لتفادى استخدام كلمة "مادية" فأطلقوا عليها بجرأة كلمة "المادة").

---

(١) أنظر: فلسفة العشرين" ترجمة عثمان نوبه مجموعة الآلف كتاب ص ٢٥٨.

ومن هنا أيضاً يمكننا أن نقول: إن بحثنا هذا يرد على أسس الاتجاهات المادية فى المذاهب المختلفة ولا ينصرف إلى بعض هذه الفلسفات دون بعض، وإنما يشملها جميعاً طالما أن تناولنا هو للثالوث المشترك بينها:

وهو الاستناد إلى العلم أولاً:

وإنكار الدين ثانيا.

والإيمان بالمادة ثالثا.

(٣)

لا يكاد يختلف مذهب من المذاهب فى أن للعقيدة الدور الأساسى فى حياة الإنسان، ولكننا نرى أن ما يحتاج إليه الإنسان ليس مطلق عقيدة، ولكن العقيدة الصحيحة فى الواقع ونفس الأمر.

ومن هنا فإنه من الخطأ التعبير عن العقيدة بالأيديولوجية نظرا لما يقصد بهذا المصطلح من قيام العقيدة بدور "التبرير" "لما يراد" لا التعبير عن حقيقة واقعية.

ونرى أن الخطر الداهم الذى تتعرض له مجتمعاتنا الإسلامية من استيراد العقائد الغريبة عنها لا ينحصر فى كونها أداة للسيطرة الأجنبية، وإنما يرجع فى الأساس إلى كونها عقائد باطلة موضوعيا.

ونحن نؤكد أنه من الخطأ الاتجاه إلى المزج بين "أيديولوجيات" متناقضة "ونرتب على ذلك ضرورة المحافظة على صفاء العقيدة الصحيحة التى اهتدى إليها مجتمعنا منذ انتشر فيه ضياء الإسلام.

وفى مجال العقيدة الإسلامية لا مبرر للحديث عن "جمود الأيدلوجية" لأننا نرى أن العقيدة الصحيحة القائمة على هدى الإسلام، صالحة للإنسان فى كل زمان ومكان، وهى فى نفس الوقت لا تقوم بهذا الدور الأصيل إلا إذا احتفظت بأصالتها وصفائها ونقائها مهما توالت عليها الأزمان والدهور، ومن ثم فإن شعار الجمود الذى قد يطرح فى هذا المجال يصبح مضللا إلى أبعد الحدود.

obeikandl.com

وإذن فنحن نرى أن ما يحتاج إليه الإنسان هو تشدده فى التمسك بأصالة عقيدته الصحيحة وصفائها، إذ أنه فى الصفاء وفى هذه الأصالة تكمن صلاحيتها للإنسان فى كل زمان ومكان، وللمجتمع فى أى طور من أطور نموه، ومن ثم فنحن لا نفترض احتمال وجود تعارض بين صالح الفرد أو الأمة ومشاكلها الحاضرة وبين العقيدة الصحيحة التى نشير إليها، وعلى ذلك فإنه كلما ظهر أن هناك تعارضا بينهما يكون المطلوب هو الرجوع إلى العقيدة فى منهلها الصافى الصحيح.

وهنا يقتضينا المقام أن نذكر كملة موجزة عن معنى "الدين". والمراد بتعريف الدين تعيين الخصائص التى لا يكون الدين دينا إلا بها.

والكلمة الأوربية التى تدل على ما تدل عليها كلمة دين عندنا هى Religion رلجيون المقتبسة من اللاتينية. وترجع الكلمة فى مبدأ اشتقاقها Religion إلى معنى الربط، الشامل لربط الناس ببعض الأعمال، وربط الناس بعضهم ببعض، وربط الناس بالإلهية. وهى تفيد أيضا معنى الشعور بحق الإلهية فى الخشية والإجلال.

أما الكلمة الحديثة Religion فتدل على وجود نظام يؤلف بين جماعة من الناس بإقامة شعائر وعبادات معينة، وبالإيمان والاتصال بقوة روحانية أسمى من الناس، حالة أو مفارقة، متعددة، أو واحدة... تستحق الاحترام والخشوع.

كما تدل على الخضوع لقانون أو عادة أو عاطفة، لها علاقة بتلك القوة الغيبية.

ويرى كل من سبنسر وماكس موللر:

أن الدين مرادف لما – وراء العقل – فالدين نوع من الإدراك لما يفوت العلم، وينقطع دونه العقل.

ويرى برونتيير أن ما يميز الدين هو الأمور الخارقة للطبيعة.

ويرى أخرون أن الدين هو ربط الحياة الإنسانية برابطة تقوم بين الروح الإنسانى وروح غيبى له سلطانه على العالم كله. وذلك الروح الغيبى هو الله. وفى بعض

الأديان تقوم مقام هذه الروح... أرواح الأموات أو أرواح أخرى متعددة فى المراتب، لها قداستها ومناسكها واعتبارها الدينى وإن لم تكن آلهة بالمعنى الحقيقى.

ويرى دوركايم أن الأمور الدينية تنقسم بطبيعتها إلى قسمين أصليين:

عقائد وعبادات:

والعقائد الدينية تقسم الأشياء إلى مرتبتين:

مقدسة وغير مقدسة.

وعلى ذلك فالعقائد الدينية تتعلق بالأمور المقدسة وعلاقاتها ببعضها وعلاقاتها بالأمور غير المقدسة.

أما العبادات فهى تنظيم للسلوك الإنسانى بإزاء الأمور المقدسة.

ويضيف دوركايم إلى الدين خاصة أخرى تفرق بين الدين والسحر فى نظره:

تلك هى ما للدين من الصبغة الاجتماعية الملازمة.

ويرى الأستاذ لالاند أنه لا تناقض من جهة الشكل بين تعريف برونتير وبين دوركايم، لأن المقابلة بين المقدس وغير المقدس عند دوركايم تطابق المقابلة بين الطبيعى والخارق عند برونتير.

وليس يحتم عند لالاند أن تكون الأمور الدينية شأنا من شئون الجماعة.

وليس كل العلماء على رأى دور كايم فى ضرورة الفصل بين الدين والسحر إذ قد يختلطان فى بعض العقائد الساذجة.

على أن قيد الصبغة الاجتماعية لا يحقق لدوركايم ما أراده من التفرقة بين الدين والسحر، إذ أن السحر أيضا متصل بالجماعة وقائم على عقائدها.

أما كلمة "الدين" فى اللغة العربية:

فقد ذكرت المعاجم للفظ دين عشرين معنى، بعضه مولد وبعضه مجازى، وبعضه متداخل:

يرى الأصفهانى فى كتاب "المفردات فى غريب القرآن" أن الدين يدل أصالة على الطاعة والجزاء.

ويدل مجازا أو توليدا على الشريعة والملة.

ويرى النيسابورى فى تفسيره:

أن الدين يدل أصالة على الجزاء، ويدل مجازا على الطاعة، لعلاقة هى السببية. أو على الشريعة. وذلك الرأى منقول عن كليات أبى البقاء.

والشهرستانى فى الملل والنحل يرى:

أن الدين يدل أصالة على الطاعة والانقياد والجزاء والحساب، ويدل مجازا على المللة والشريعة.

والمستشرق ماكدونالد نقلا عما كتبه فى دائرة المعارف الإسلامية فى لفظ دين يرى أن للكلمة ثلاثة أصول مختلفة المعنى:

أ- أصل آرامى عبرى بمعنى حكم.

ب- أصل عربى بمعنى العادة.

جـ- أصل فارسى بمعنى الله.

وينكر فولرنس الأصل العربى للكلمة ويرى أنها مستمدة من اللغة الفارسية. وهذا رأى مستبعد لما ذكره ماكدونالد، ولما يجده الباحث من تفنن العرب فى اشتقاقها لهذه الكلمة وتعدد استعمالاتها مما لم تجر لهم به عادة فى الكلمات المعربة.

ويرى الشيخ مصطفى عبد الرازق فى بحثه العميق لهذه الكلمة والذى رجعنا إليه هنا أن الكلمة مأخوذة من اللفظ العربى "دين" -بفتح الدال - فهما من مادة واحدة.

وهما مصدران لفعل واحد.

obeikandl.com

وهما يستعملان للدلالة على شئ غير حاضر. وكانت لفظة "دين" أصلا، لأنها على وزن فعل – بفتح الفاء –، وفعل – بفتح الفاء – أكثر استعمالا فى العربية من فعل – بكسر الفاء –. ومع ذلك فإن هذا الرأى لا يمنع من أن تكون الكلمة مستعملة فى معان أخرى كثيرة كالطاعة وغيرها.

وأما استعمال كلمة "الدين" فى لغة القرآن: فقد ورد لفظ دين فى القرآن فى أكثر من ثمانين موضعا. وفى كليات أبى البقاء أنها جميعا بمعنى الحساب وهو رأى ضعيف، رجع عنه صاحبه.

ويفهم من كلام الراغب الأصفهانى أنها ترجع إلى ثلاثة معان: الطاعة، الجزاء، الملة.

ولا شك أن القرآن يستعمل الكلمة فى المعانى المعروفة عند العرب، وإذا كان العرب يستعملونها بمعنى الملة فهم يريدون بذلك الملل المعروفة لديهم. لكن ما هى الملل المعروفة عندهم؟

إن المرجع الصادق فى ذلك القرآن، وهنا آيات نستخلص منها الملل المعروفة التى سميت باسم الدين، وهى التى ينتسب إليها الجماعات الرئيسية الآتية:-

١ – المؤمنون.

٢ – اليهود.

٣ – النصارى.

٤ – الصابئة.

٥ – المجوس.

٦ – المشركون[١].

٧ – وأخرون مختلفون فمنهم:

---

(١) الآيات ٦٢ سورة، ٢، ٦٩ سورة ٥. ١٧ سورة ٢٢.

obeikandi.com

أ- من أنكر الخالق والبعث والإعادة وقال بالدهرية[1].

ب- ومنهم من أقر بالخالق وبالحدوث وأنكر البعث[2].

جـ- ومنهم من أقر بالخلق وبالحدوث وبنوع من البعث وأنكر الرسل وعبد الأصنام كوسطاء[3].

وأما المعنى الشرعى لكلمة دين فنذكر أن القرآن قرر فى الدين أصولا جعلت له معنى شرعيا خاصا.

١- فهو لا يكون إلا وحيا من الله إلى أنبيائه[4].

٢- وهو واحد لا يختلف بين الأولين والآخرين[5] هو الإسلام.

يقول الشيخ محمد عبده فى تفسيره لجزء "عم" (الدين هاهنا هو خلوص السريرة للحق وقيام النفس بصالح العمل، وهو ما كان يدعو إليه صلى الله عليه وسلم وسائر إخوانه من الأنبياء.)

وأخيرا يأتى التعريف المشهور للدين فى لسان الشرع بأنه (وضع إلهى سائق لذوى العقول السليمة باختيارها المحمود إلى ما هو خير لهم بالذات.)

وهذا يعنى أن الوضع الإلهى لا يتعلق بالأحكام الشرعية فقط وإنما يدخل فيه كل ما يوحى به الله إلى رسله عليهم السلام من أمور الدنيا والآخرة.

كما يعنى إخراج كل ما يضعه الساسة والحكماء من تشريعات وأيديولوجيات.

---

(١) الآية ٢٤ سورة ٤٥.

(٢) الآية ٧٨، ٧٩ سورة ٣٦.

(٣) الآية ٣ سورة ٣٩.

(٤) أنظر ٣ سورة ١٣ والآية ٤٣ سورة ١٦. والآيات ١٦٣، ١٦٥ سورة ٤ والآية ١٣ سورة ٤٢.

(٥) انظر كتاب الدين والوحى والإسلام للشيخ مصطفى عبد الرازق.

obeikandl.com

وهو يعنى سوق البشر باختيارهم إلى الخير بالذات، وهو السعادة الأبدية، والقرب من رب البرية.

ويمكن اختصار التعريف إلى ما ذكره البيجورى (إن الدين هو الأحكام التى وضعها الله، الباعثة للعباد إلى الخير الذاتى)[1].

ولكن نظرا لأن الخصم الذى نناقشه فى هذا المبحث "الإلحاد" يهاجم "الدين" باسم العلم، ودون أن يبرأ من اعتناق نوع من "الدين" الزائف، فقد رأينا أن نكشف عن هذا "التناقض" بين ما يتصف به، وبين ما يدعيه، ولذلك فإنه يصبح من الجائز لنا أن نقصد بالدين فى هذا الباب... المعنى العام، الذى لا يخص بالدين الصحيح وإنما يشمل أى نظام من المعتقدات تتوفر لها الخصائص التالية كلها أو بعضها:

أولا: أن تقوم على إيمان أولى.

ثانيا: أن تقوم على التسليم بوجود غيبى غير خاضع للإدراك الحسى المباشر أو غير المباشر.

ثالثا: الإيمان بأصل للكون يتصف بالقدم والخلود.

رابعا: وترجع إليه – أى إلى هذا الأصل – الأشياء فى طبيعتها وقوانين وجودها.

خامسا: انتظار الحياة المؤجلة التى يستكمل فيها ما نقص من هذه الحياة الحاضرة.

---

(١) انظر حاشية شيخ الإسلام – الشيخ إبراهيم البيجورى: تحفة المريد على جوهره التوحيد ص ١٤ طبعة بولاق.

obeikandl.com